الفكرُ اللسانيّ

مجلّة علميّة محكّمة
في العلوم اللغويّة التراثيّة
واللسانيات الحديثة

مجلّة الفكرُ اللسانيّ - علميّة محكّمة - تصدر عن مخبر المباحث الدلالية واللسانيات الحاسوبية -**كليّة الآداب منوبة**

أكتوبر/تشرين الأول
2021

مخبر
«المباحث الدلاليّة واللّسانيات الحاسوبيّة»

أسّس سنة :2018

مجلة «الفكر اللسانيّ»

مـجــلّة علـميّة محكّمة ومتخصّصة

العدد الأوّل	أكتوبر 2021

كليّة الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة 2040 تونس
الهاتف القارّ: 216.71.600.700 (المكتب 1073)

البريد الإلكتروني: alfikr.alissani@gmail.com

اللّسانيات وعلم الأدب

فرانسوا راستيي[1]
المعهد الوطني للّغات الشرقية، إينالكو، باريس[2]*

1. مقدمة

لم يبحث التقليد النحويّ في مسألة وصف الأدب، غير أنّه منذ نشأة اللسانيات لما يزيد عن قرنين من الزمن أصبح علم اللغة وعلم الأدب متجاورين في نطاق علوم الثقافة. وجرى تغييب هذا المنحى من قبل الأنحاء الصورية والنظرية المعرفية الأرثودوكسية. وبتطويرها للمنهجية المقارناتية، سمحت البنيوية ببزوغ تقدّم نظريّ استُغل من قبل سيميائيات الثقافات، وإذا ما نظرنا إلى أبعد من لسانيات النصوص، فإنّه يتعيّن طرح تصوّر للسانيات الأعمال الفنية (Oeuvres) والعمل على ترسيخها. وفي الواقع، سيكون للتفاعل الحاصل بين اللسانيات والدراسات الأدبية أثر إيجابيّ من حيث الاستفادة المتبادلة بينهما.

الكلمات المفاتيح: لسانيات مقارنة، أدب، بنيوية، نحو، سيميوزيس، سيميائيات الثقافات.

---

(1) frastier@gmail.com.
(2) ترجمة ادريس الخطاب (جامعة الحسن الثاني-الدارالبيضاء، كلية الآداب بالمحمدية-المغرب).

Introduction.

The classical grammatical tradition was not interested in the description of literary texts. Since the birth of modern linguistics, however, the language and literary sciences have come into close contact with each other under the aegis of cultural sciences. This tendency has been absent from the orthodox formalist, theoretical and epistemological paradigm. The development of the comparative methodology within structuralism has paved the way for some theoretical headway, which has been positively employed by the semiology of cultures. Beyond developments in text linguistics, it is necessary to posit and implement a linguistics of literary oeuvres/ works. Consequently, the synergy between linguistics and literary studies will have a cross-fertilising effect on both fields.

Keywords comparative, Linguistics, literature, Structuralism Grammar, Semiosis, Cultural semiology.

2. محدودية الإشكالية المنطقية ـ النحويّة

عندما أقدمت مدرسة الإسكندرية على التأسيس الثقافي لحقولها، كان النحو مبحثا ملحقا بالدرس الفيلولوجي القاضي بتكوين المتون الأدبية،وخاصّة المتن الهوميري. وتم الاعتراف بدوني لوطراس(Deny (Le Thrace وهو خريج هذه المدرسة، على أنّه أوّل من ألّف المصنفات النحويّة التي وصلتنا والتي تشير إلى المقولات الأساسية في تقاليدنا اللغوية، ونخص بالذكر أقسام الكلام التي لم يتغير ترتيبها وعددها إلى حدود شومسكي. وفي آخر جزء من المصنف، يشير الكاتب إلى أن أجمل قسم في النحو هو نقد الأعمال، وهو نقد ذو طابع فيلولوجي وجمالي.

لكن مع الأسف، سيظل هذا البعد مهملا في التقليد المدرسيّ الذي بدأت ملامحه في الظهور، لأن النحو أصبح مبحثا إعداديا لمرحلة البحث الجامعيّ، وهو أول مكون في الحقول الثلاثة (Trivium) التي تدَرس للأطفال[3]. أمّا

(3) تبرز الإيكونولوجيا هؤلاء الأطفال في وضعية المهددين بالعقاب، بل وفي وضعية الضرب على المؤخرة أمام الملأ، كما في كنيسة سان أوغوسطين دوسان جيمينيانو. في الغالب، يصور النحو على أنه مؤسسة مُنفرة ووحشية.

القضايا الجمالية، فلا يتم التطرق إليها بإسهاب إلا في نهاية سلك الدراسات، مع بداية القسم الخاص بالدرس البلاغيّ. ولم يعد الأمر يتعلق بحفظ القواعد الصالحة لكل موضع، بهدف تكوين الجمل السليمة في لغة عادية نسميها في ما مضى «اللغة الراجلة» (Sermo Pedestris)، ولكن، وعلى النقيض من ذلك، كانت مهمة النحو تتمثل في الكشف عن الأعمال الأدبية الفريدة ووصفها، والشاهدة على وجود نسخة من «اللغة الطائرة» (Sermo alatos).

إجمالا، وإلى حدود تكوين اللّسانيات، انقسم التفكير اللغوي (مع العلم أن حضارات أخرى غير غربية عرفت هذا التقسيم) إلى ثلاثة أقسام وهي: النحو المدرسي المتمركز حول لغة الثقافة و/ أو اللغة الدينية: السنسكريتية، والعربية القرآنية، والإغريقية الكلاسيكية الهوميرية، واللاتينية؛ والمنطق الفلسفي الذي يشير إلى أكبر المصنفات السكولائية حول اللغة والفكر، والهيرمينوطيقا الأدبية أو الدينية ذات الوظيفة التربوية، بل والتأسيسيّة، منذ تأويلات الرواقيين لملحمة هوميروس.

وبالاستناد إلى نقد الأنطولوجيا، سمحت النظريات البلاغية الصادرة عن الإنسانيين مثل لورينزو ڤالا (Lorenzo Valla) ولويس ڤيڤس (Luis Vivès) وإراسم (Erasme) وجيوردانو برونو (Giordano Bruno) بتغيير جذري للإشكالية. لقد جرى تهميش هؤلاء من قبل التقليد الجامعيّ الذي لم يستسغ حركية النقد الجذري في التصور المنطقي للغة المشتركة بين النحويين وخبراء الديداكتيك.

واصلت الإشكالية المنطقية-النحوية[4] التي كانت مهيمنة في علوم اللغة، إعاقتها لفهم العلاقات الرابطة بين اللسانيات والأدب. وكان النحو يفضل دائما

(4) عرفت علوم اللغة إشكاليتين هما الإشكالية المنطقية-النحوية التي تدرس العلامات وتعمد إلى وصف المتتاليات التركيبية والإشكالية البلاغية-الهيرمينوطيقية الهادفة إلى معالجة النصوص. وفي كلا المسارين، اعترض الباحثين مشكل مفهومي «العلامة» و«النص»، أي طبيعتهما وطرق تأويلهما. في الإشكالية الأولى، يرتكز التحليل اللساني على الجانب التركيبي والعلاماتي في اللغة، وفيه يعتمد النسق التأويلي بالأساس على الآلة التركيبية. أما في الإشكالية الثانية، فإن التأويل يعتمد على البنيات التي لا تعتبر وحدات أنطولوجية جامدة، بل تعتبر فضاءات وأزمنة لمسارات إنتاجية وتأويلية. ولا حظ راستيي أن البحث اللغوي قد انكمش على نفسه، وخصوصا عندما استكان إلى التقاليد النحوية والمنطقية التي قادت علوم اللغة إلى إهمال الأشكال التنظيمية للنص، مثل النبرات الصوتية والأشكال الدلالية (المترجم).

القواعد وواصل شغفه في البحث عنها وصياغتها والتمحيص في تمفصلاتها، إلى حد افتراض وجود نظام لغويّ واحد. ويبدو أنّ النسق المتعدّد الأنظمة أحسن من الأول؛ إذ إنّ الاطّرادات الملاحظة في بعض الميادين ذات الصلة بالبنية، مثل المقطع الفونولوجي أو المركّب لا تمثل نظاما، لأننّا بصدد سُلَميات مختلفة ودرجات متفاوتة من حيث التنظيم راستيي(Rastier،1987،ف3). وبغض النظر عن سياسات تحقيق المستوى الأمثل، فإنّ التفاعل القائم بين الأنظمة المحلية يُعيِن جزئيا، بالنسبة إلى الشروط الداخلية المتحكّمة في تطوراتها، التحديدات الخارجية الصادرة عن المؤسّسات الاجتماعية الأخرى، المستقلة عن اللّغة.

ومن جهة أخرى، يستهدف النحو الاستعمال اللغويّ الخالي من الأخطاء: فعلى كل جملة فرنسية أن تمتثّل القواعد، وهذه المطاوعة تخوّل لها نيل الاعتراف بها، وإذا لم يتحقّق ذلك، ستستثنى من النسق اللغويّ ، وتعتبر بذلك جملة لاحنة؛ بل إنه في غالب الأحيان، كما رأينا مع شومسكي، وشوميان (Saumjan) أو مونطاگ (Montage)، تسعى الأنحاء إلى الوصول إلى الكونية، وذلك بالتعبير عن قواعد الذهن الإنساني، مثل ما تسمح به المطابقة المعنوية بين **اللوغوس** باعتباره سلسلة منطقية (ومنه اشتق المنطق)، **واللوغوس** باعتباره خطابا أو سلسلة لغويّة. لقد ميّز الرواقيون بالفعل بين الخطاب الداخلي، وهو خطاب العقلانية (Logosentiathéos) والخطاب الخارجي (prophorikos Logos)، ولكن التصورين يحيلان على بعضهما، بحيث إن اللاحقةLogie) (ما زالت تشير إلى خطاب المعرفة(Pharmacologie, météorologie, etc).

ولصياغة القواعد، يفضل النحو الأشكال التنظيمية الأكثر اطرادا وذات التوزيع المتجانس؛ باختصار، فهو يفضل تلك التي تُكَون «عمق» النظام البنيوي للمادة اللغوية. غير أن الأشكال المعقدة التي تظهر في خضم هذا العمق المورفو-تركيبي تنفلت من قبضته بسبب تعقيده، لأنها غير قابلة للإدراك بواسطة أي من مقولاته، ولا حتى بواسطة تفكير خاضع للمقولة: ولكونها غير مفصولة، فإنها تتجنب المعرفة اليقينية المرتبطة بما يسميه جان كلود ميلنر (Jean-Claude Milner) «المختلف التركيبي». باختصار، لا تخضع الأشكال المعقدة للتقابل القائم بين النحوي واللاحن، غير أنه لا يمكننا الاستكانة إلى النحو الصارم، لأنّه

يتحمّل حدوده ولا يعتبر وصف الأشكال النصية وتطوراتها من أهدافه. وفي المقابل، تتقاسم اللسانيات النصية والدراسات الأدبية (في إطار المتون الموحدة) الهدف القاضي بإبراز الاختلاف الموجود بين النصوص في ما بينها والاختلافات في النص الواحد؛ كما تسعى إلى وصف الأشكال الدلالية والتعبيرية، عن طريق وصف ما يلحقها من تحول.

3. تكوين اللسانيات وتأسيس علوم الثقافة

قبل تكوين اللسانيات، لم يكن النحويون يتورعون من إبداء ملاحظات حول الأعمال الأدبية، وكانوا يوصون بقراءة المؤلفين الجيدين؛ فمن جهتهم كان الكتاب يمتلكون تكوينا في اللغات القديمة، بحيث إن معرفة اللغات ومعرفة الأعمال الأدبية كانتا متوازيتين في إطار الآداب.

وتطورت هذه العلاقة لتأخذ منحى آخر مع فلسفة الأنوار ونشأة علوم الثقافة في نهاية القرن الثامن عشر، عندما جرى تكوين اللسانيات المقارنة والأدب المقارن. وتضافرت جهود كل من اللسانيين وعلماء الفيلولوجيا لوضع المتون المكتوبة، وخاصة المتون الأدبية، مثل متون التروبادور التي تكونت وطبعت من قبل الرومانسيين الألمان، من أمثال الأخوين شليغل في المقام الأول. وعلى إثر ذلك، تجاوزت اللسانيات التبسيطات الديداكتيكية المُمجَدة في النحو المدرسي، وقامت اللسانيات المقارنة بتحديث الوضع الذي عرفه التفكير حول اللغة واللغات، في حين استغرق تطور النحو عشرين قرنا. واتسع مجال هذا الحقل ليلامس النحو المقارن؛ أما الآداب، فلم تعد تقتصر على اقتراح أمثلة صادرة عن أحسن المؤلفين،إذ إن علم الأدب سيتكون مع بزوغ الأدب المقارن. وسيصبح حقلي كل من اللسانيات المقارنة والأدب المقارن متجاورين ضمن الحقل المعرفي العام الجديد الذي بدأت معالمه تتكون مع تأسيس علوم الثقافة، وهو المشروع الذي تعود جذوره بالأساس إلى فكر الأنوار. وأضحت دراسة اللغات حقلا معرفيا شريفا ينضاف إلى دراسات النصوص، بما فيها الأعمال الأدبية. وإلى حدود سوسير وما بعده، نلاحظ أن دراسات اللغات ودراسات الأدب يسيران جنبا إلى جنب بهدف وضع المتون وتأويلها. ومن جهة أخرى، اقتسمت كل من اللسانيات التاريخية والأدب المقارن الشروط التي تفرضها المنهجية النقدية.

غير أن هذا الوضع الجديد قد تعرض للطمس بطرق متنوعة، جراء التصور التصوفي للغة تارة، وبفعل اختزال اللسانيات في النحو تارة أخرى. إن التصوف الرومانسي الذي طبع اللغة، والذي تعود أصوله إلى التخمينات الدينية والفلسفية لمؤلفين من أمثال جاكوب بوهم (JacobBöhme) قد رسخ فكرة أن الأدب والشعر على وجه الخصوص، كان لغة متعالية، أي صدى للغة الإلهية. وهذا الاعتقاد الذي نجده عند هولدرلين (Hölderlin) ونوڤاليس (Novalis) قد استمرمع تيار الرومانسية المتأخرة، في بعض حلقات الشعرية الروسية مثل مثالية كروس (Croce) الذي كان له تأثير على كوسيريو (Coseriu) بل وعلى المؤلفات الأخيرة لميشونيك (Meschonnic)، وهي الأعمال التي تخترقها نفحة إنجيلية. بالنسبة لهايدجر (Heidegger)، يشير الشعر إلى الآلهة المختلفة وبواسطة الشعر تتجلي لغة الآلهة-التي تختزل الواقع في اللغة الألمانية العتيقة، التي وقع تنقيحها واعتبارها لغة مثالية. وهكذا استطاعت الرومانسية المتأخرة التي ما زلنا متأثرين بمبادئها إجراء مقابلة بين العلوم والفنون، مع التقليل من شأن مشروع المعرفة التي تختص بها الأولى والرفع من شأن التعبيرات العاطفية الواصفة لمشاعر ومعاناة الآخرين، وهو الاتجاه الأدبي الذي ظهرت معالمه اليوم في بعض النظريات المهتمة بجمالية التلقي. وفي مجال الدراسات الأدبية، أراد تيار التفكيكية رفض كل مقاربة علمية، بل وحتى أبسط المقاربات الموضوعية.

لقد قاد سوء فهم آخر بين اللسانيات والدراسات الأدبية إلى اختزال اللسانيات في مادة النحو، كما هو مألوف في معظم الأحيان. ومنذ نصف قرن، قطعت الأنحاء الكونية واللسانيات المعرفية صلاتها بالمتون الأدبية؛ أما الشكلانيون الجدد، فقد أعادوا طرح مبادئ الأنحاء العامة التي سبقت تكوين اللسانيات (انظر،شومسكي1966،Chomsky). فاللغات لم تعد موضوع اللسانيات، بل أصبح النحو يمثل موضوعها (انظر شومسكي،1984،صص-7 34). أما النّصوص والأدب بصورة أقوى، فقد اختفت من اهتمامات اللسانيين، مع أنها تمثل الموضوع الأساسي في اللسانيات. ومع بروز الأنحاء الكونية المعاصرة، ازدادت حدة رفض الأمثلة المستقاة من النصوص الأدبية، لصالح الأمثلة النثرية والمفبركة. وإضافة إلى كل هذا، وعلى غرار النحو، اقترنت فلسفة اللغة بقضايا اللغة «الراجلة» عند السكولائيين، وصولا إلى أوستين (Austin) (الذي انتقد

الشعر واعتبره «غير جاد» أو ستراوسن (Strawson) الذي رفض الأشعار الهوميرية باعتبارها «تافهة». واستنادا إلى ما سبق، فإن هيمنة النحو على الحقول المعرفية المعالجة للغات أدت إلى التفرقة بين اللسانيات والفيلولوجيا[5]، بل وحتى إلى اختفاء هذه الأخيرة (وينطبق هذا الأمر على فرنسا حيث اختفت التكوينات الخاصّة باللسانيات والفيلولوجيا).

وبما أنّ اللسانيات المقارنة تشتغل على المتون، فإنها تحتفظ بعلاقة وطيدة مع الفيلولوجيا، وهذا الرابط ضروري إلى درجة أننا قمنا بتأسيس فيلولوجيا رقمية[6]. وبالنسبة للسانيات المقارنة، ليس للفصل بين اللسانيات والأدب أية صفة إلزامية أو لا يجب الحكم عليه بأنه فصل لا رجعة فيه. صرح «لويس كالفي» (Louis Calvet) مثلا في سنة (1922) بما يلي: « في الواقع، تمثل الآداب في صورتها الأقل سوءا وصولا إلى الأدب المبتذل» ومادة للعلم بالمعنى الحقيقي للكلمة، فالمنطق هو الذي يحدّد العلم والمنهج، وليس الموضوع .

مثلت البنيوية السوسيرية انعكاسا ذاتيا للسانيات التاريخية والمقارنة، وكانت مختلف بؤر البنيوية (موسكو، براگ، كوبنهاگ، باريس) تفضل دائما الاشتغال على النصوص. وكان هذا المنحى يمثل تقليدا في كل دوائر البحث البنيوي، من الشكلانيين الروس (المنحدرين من دائرة الشعرية بموسكو) إلى حلقة براگ (انظر موكارڤسكي .(Mukarovski وتجدر الإشارة أن كلّ اللسانيين الكبار اشتغلوا على النصوص الأدبية، من سوسير الذي درس الملحمات الجرمانية والأشعار الهوميرية خاصّة، وصولا إلى جاكبسون الذي درس سلسلة ملحمية روسية. وبموازاة ذلك، نلاحظ أن كاسيرر انطلق من علوم الثقافة ليقترح تعريفا مورفولوجيا للبنية، وبعد دراسة اللسانيات التاريخية والمقارنة (في الجزء الأول من كتابه «فلسفة الأشكال الرمزية») توصل إلى نظرية الأشكال الرمزية

(5) في الماضي وبالنسبة لروول دو لا گراسري (Raoul de la Grasserie)، كانت الفيلولوجيا تدرس اللغة الأدبية ولسانيات اللغات . Voir : La Grasserie.1983

(6) الفيلولوجيا الرقمية هي الفيلولوجيا المرتبطة بالمعلوميات، وقد تزامن ازدهار البنوك النصية ولسانيات المتن مع ظهور العديد من تجمعات البحث مثل «الإحصاء الرقمي للعلوم الإنسانية»، وساهم كل هذا في تجديد غير منتظر لهذا الحقل المعرفي الجديد(المترجم).

(المؤسسات مثل اللغة، أو الفن، أو القانون) التي تتقاطع مع السيميولوجيا العامة عند سوسير.

واعتبارا لما سبق، ومنذ فترة ما بين الحربين، اتخذت العديد من الدراسات اللسانية من الصنف الأول الأدبَ موضوعا لها، وهذا ما كان عليه الحال في الفترة الممتدة من سنة)1950 إلى 1970(، إذ كانت الدراسات تتبنى البنيوية. وفي الوقت الحاضر، أعادت لسانيات المتون والإنسانيات الرقمية العلاقة مع الفيلولوجيا ومع الهيرمينوطيقا المادية.

لا تفترض اللسانيات وجود أية صفة استثنائية للأدب، ولكنها تعترف بالتنوع الذي تعتبره موضوعا للدراسة. ففي الواقع، يحدد كل خطاب معاييره، وأضحت قواعد اللغة عبارة عن مجموعة معايير عابرة للخطابات. وسيكون تعريف الأدب بوصفه انزياحا بالنسبة للغة العادية أمرا وهميا، وأرى بالمناسبة أن هذه اللغة العادية ليست أقل لغزا من الأولى. وتنقسم اللغة العادية أيضا إلى عدة درجات معيارية وإلى أنواع وخطابات: فللعلم وللأدب «لغتهما العادية»، ويملكان لغة خاصة تتخللها عدة صور نمطية، وتمثل لغة العلم العادي والكتب الأكثر مبيعا صالة العبور.

ويقود الفرق بين الخطابات والنصوص إلى التدقيق في تحديد العلاقة القائمة بين القاعدة والاستثناء، مع إعادة الاعتبار للثنائية السوسيرية الممثلة في اللسان والكلام. وتختزل القاعدة في الاطراد الغالب في استعمالات اللغة في لحظة تاريخية معينة؛ فهي إذن معيار مهيمن. وبما أنه لا يطبق في جميع الحالات، فإن الاستثناء يكشف عن المعيار، من دون العمل على إبطاله، ولا يؤكده إلا بصورة معاكسة، مع المساهمة في تطويره. لا تخرق لغة الأدب القواعد إلا من وجهة نظر نحوية معيارية. أماإذا أخذنا بعين الاعتبار الإطار العام الممثل في اللسانيات الوصفية، فإن اللغة الأدبية ليست إلا الاستعمال المحدد للخطاب، ولا تعد بلورته المستمرة خرقا لنظام معين، كما زعم بعض مؤيدي التيار الشيطاني المنتمي إلى مدرسة ما بعد الرومانسية. ففي الحقيقة، كل استعمال لغوي يغير احتماليا اللغة.

وعلى أية حال، لا يغير الأسلوب العلمي العادات عن طريق وضع المعايير، ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار الخطابات الأخرى، مثل الخطاب الديني،

والقانوني، والعلمي، الخ، فإن دور الأدب يكمن في اللعب بالمعايير والسعي إلى استشكالها، وذلك بتنويعها بصورة نقدية. ولهذا السبب يمكننا وصف أساليب المؤلفين التي يشار إليها على أنها، وهذه مفارقة، أساليب نابعة من «اللغة العادية»، بل وحتى على أنها أساليب شاهدة على وجود مشاريع فنية فريدة. فالكاتب يخلق لغته، أو بالأحرى، يجسد في كل عمل حالة لغوية ممكنة. مثلا، كان إدوارد گليسان(Edouard Glissant) يسعى إلى تحقيق المهام التالية: وضع قائمة من كلمات لا نعرف معناها بالضبط، وأبعد من ذلك، تثبيت المستوى التركيبي لكل ما نتفوه به» (انظر گليسان،1975،ص231). وحينما نفكر في الاستعمالات اللغوية بصورة نقدية، فإن الإبداع في فنون اللغة يسبق التفكير النقدي المتحكم في الوصف العلمي؛ غير أن الاعتراف بكل هذا لا يعني الدفاع عن المعرفة الشعرية أو، أسوأ من هذا، الدفاع عن شعرية العِلم.

4. دراسة الأعمال والعناصر المكونة للأوبراتيك

– **مراجعة**: إذا ما رجعنا إلى الوراء، فإن المراجعة بل وحتى إعادة تأسيس النحو، تفرض نفسها: ليس على أساس المقولات (وعلاوة على ذلك فهي مقولات توصف بالتمركز الإثني) مثل أقسام الكلام أو (Speech parts of) المنتشرة في المعالجات الآلية للغة وفي الأنطولوجيات مثل «الويب الدلالي»، ولكن سيعاد تأسيس النحو على أساس الوحدات الأساسية المكتشفة سالفا من قبل اللسانيات، وهي مقولة المورفيم والفونيم؛ من دون نسيان الأمور الأساسية: الأشكال الدلالية مثل التيمات، أو الأشكال التعبيرية مثل الانحناءات النبرية؛فحتى العلاقات التركيبية يجب إعادة تحديدها على منوال العمل الذي قام به لويس تينيير (Louis Tesnière) في نظرية التحول. وعلي سبيل المثال، أصبح مفهوم التعدي (Rection) يطرح الإشكالية التالية: لم يعد الفعل «مَلِك» الجملة والعامل المتحكم فيها؛ ثم ما العمل بخصوص اللغات التي لا تملك خاصية المقابلة بين الفعل والاسم؟

إن كل كلمة وكل جملة تعتبر مقتطفا من نص ما، وتمكن لسانيات المتن في الوقت الحاضر من الكشف عن محدودية الأنحاء الصورية وليس إعطاء الصلاحية لها. وهكذا ففي المعالجات الآلية للغات، نلاحظ الفشل الذريع الذي

منيت به النظرية الشومسكية المؤسسة على الصورنة التحديدية والناكرة لمفهومي النص والمتن، وهذا ما يفسر موقف (شومسكي،1966) الذي صرح بالآتي: «لا توجد لسانيات المتن». واستجابة للطلبات الاجتماعية، انتشرت أنواع أخرى من اللسانيات الصورية مثل الصورنة الاحتمالية، ذات التوجه البايزي وليس فقط التكراري بفضل الذكاء الاصطناعي النابع من التيار الترابطي في العلوم المعرفية.

– **نشأة الفنون**. يستمد الأدب وفنون اللغة مقوماتهما من المادة اللغوية لكي يبدعا بطريقة استرسالية، ويخلقا أشكالا جديدة تعمل في الغالب على وضع تعددية سيميائية، مثل الغناء وفن الخط بالنسبة إلى الشعر. لذا فإن التكوين المستمر للعلامات يساهم في تمديد تكوين اللغات. وبما أن الإنسان لا يملك لغة فطرية، فإن اللغات تعتبر أعمالا فنية، أضف إلى ذلك أن فنون اللغة تساهم في إدامتها وذلك ببلورتها. وتحيل التعابير المحكمة الصياغة مثل التعابير المؤلفة من أربعة أحرف في الصينية، على أعمال قديمة تمت صياغتها بهذه اللغة. إن العلامات مقتطفات من النصوص، بل وقطع من أعمال أو آثار منبثقة من النصوص الأسطورية. ومن بين كل العلامات التي تخلق كل يوم، لا يكتب البقاء إلا لتلك التي تظهر في النصوص الشفهية والمكتوبة، لأنها لا تنسى.

باختصار، نرى أن اللغات أعمال فنية نخلق من خلالها أعمالا فنية أخرى. ويبدو أن الوعي بالأعمال النموذجية أمر مشترك بين الأنواع النصية؛ إذ إن النصوص الدينية، والأسطورية والشعرية هي نصوص تحظى بمكانة خاصة، وتُحفظ وتُمرر إلى الأجيال القادمة. وفي وقتنا الحاضر،نرى أن التصور الأوبراتيكي[7](Opératique) للغات قد تعرض للإهمال بسبب شيوع النظريات الداروينية الجديدة حول اللغات، مع العلم أنّ هذه النظريات تطرح مشكلا من نوع آخر وتقدم تصورا خاطئا.

إن المادة اللغوية غير محايدة أو غير متجانسة؛ فهي حقل مشبع يستخدمه الفنان ليثير ويستغل ويعكس التمظهرات والأشكال[8]. إجمالا، هناك علاقة تواصل واستمرارية بين تكوين العلامات من قبل السيميوزيس[9] الخاص

(7) وظفنا هنا المصطلح الذي قام رامبو بتوليده، ولكننا منحناه معنى آخر.
(8) لم نتمكن من تطوير هذه النقطة هنا، لذا نحيل القارئ على الكاتب،2016b.
(9) لا يجب اعتبار السيميوزيس فقط علاقة أساسية تجمع بين وجهي العلامة (الدال

بالنصوص وتكوين اللغة، إذ إن العملية الأولى تجسد الثانية. ولم يحظ هذا البعد بالتفكير النحوي، بما أنه ينتمي إلى مجال البراكسيولوجيا[10]، كما أن استمرار الأنطولوجيات الفلسفية في اللسانيات المعاصرة لم تستطع الذهاب إلى أبعد الحدود. في الواقع، اهتمت التداوليات بما نفعله بواسطة اللغة، ولكنها لم تدرس الكيفية التي تُخلق بها اللغة.

وبمعية أهداف ومناهج مختلفة، يبلور فن اللغة وعلم اللغة وجهات نظر متكاملة، وهذا ما تشهد به عملية الاقتراض المتبادل بين اللسانيين والمحللين ونقاد الأدب. وإذا ما نظرنا إلى أبعد من كل هذا، نلاحظ أن اللسانيين يجدون في الأدب موضوعات جديدة قابلة للملاحظة ونقدا صامتا لخطاطاتهم الكثيرة البساطة؛ إذ إليهم تعود مسؤولية رفع التحدي والتعلم من الأعمال الفنية.

وبموازاة ذلك، نلحظ أن طائفة من الكتاب، من ستيفان مالارميه (Stéphane Mallarmé) إلى إيطالو كالفينو (Italo Calvino) وكلود سيمون (Claude Simon) أبانوا عن تمكنهم من المعرفة النظرية التي عكستها الممارسة الإبداعية. ومترجمو الأدب، أي اللسانيون والمبدعون على حد سواء، يجسدون جيدا هذه التكاملية، بحيث يمكن أن يصبح علم الترجمة نقطة لقاء استراتيجي بين اللسانيات والأدب.

لذا يتعين على دراسة الأعمال الأدبية أن تتعقب النصوص للوصول إلى بلورتها: وهذه هي المهمة الكبرى المنوطة بالهيرمينوطيقا المادية أو الهيرمينوطيقا المدعمة بالفيلولوجيا. وترتكز هذه العملية على لحظتين:

والمدلول)، وإنما يجب تمديدها، بحسب راستيي، إلى مستويي المضمون والتعبير في النصوص ومختلف الإنجازات السيميائية (المترجم).

(10) عملا بمبدأ فصل الأنطولوجي عن البحث السيميائي والدلالي، دعا راستي في كتابه فنون النص وعلومه (2010، دار توبقال) إلى اتباع منهجية فهم النصوص والفنون التي تعد حقولا تطبيقية، في إطار البراكسيولوجيا (la praxéologie)، التي يعرفها على أنها دراسة الإنجازات السيميائية في علاقتها بمستويين آخرين للممارسة هما المستوى التمثيلي والمستوى المادي. وفي هذا السياق، لا يمكن فهم الفنون، أي المعارف التقنية أو الأمبريقية، إلا في إطار البراكسيولوجيا (المترجم).

1) من جهة، توضح الأعمال الأدبية النصوصَ، ويمكن التسليم بأن الأوبراتيكية ودراسة الأعمال الفنية تمكنان من الكشف عن العمليات اللغوية التي لم يتم إحصاؤها. ومن دون الادعاء بأن اللغة اليومية ليست إلا علمنة للغة الآلهة، فإن تكرارها الثابتيشير إلى الصيغ الطقوسية التي يقوم عليها النظام الاجتماعي على مستوى مختلف المؤسسات.

2) ومن جهة أخرى، تعكس النصوص بلورة الوحدات الدنيا عن طريق التكرار، والتثبيت، وإنهاك الاستعمالات المطردة، وتحول الحروف المنطوقة إلى حروف صامتة. ولا تعد الكلمة في نهاية المطاف سوى مقتطف من أسطورة. وتأكيدنا على هذا لا يعني أننا نعيد أطروحة فيكو(Vico) التي تفترض أن الشعر هو أصل اللّغة، فاللّغة، بالنسبة إلينا،ليس لها أصل لأنها مستوحاة من التطورات، سواء التطورات الداروينية الخاصّة بنوعنا، وهي التي كونت الطبقات التحتية التشريحية، أو التطورات التي تحدد تكويننا الجيني، وما يمكن أن نسميه»تجسيد النقل السيميائي».

وأخيرا، لا بدّ أن نذكر أننا لا نمرّ من البسيط إلى المعقد مع أننا لا نتبنى مبدأ التأليفية عند فريجه (Frege) ؛ ففي علوم الثقافة، مراعاة التعقيد هو الأمر الذي يحدد المقادير والسمات الواردة.

5. توجّهات وأجندة

إذا حصلت قطيعة بين الدراسات الأدبية والأبحاث العلمية المهتمة باللّغات والنصوص، فإن هذا سيضعها في وضع حرج يشبه وضع علم الموسيقى الذي يفتقر إلى المادة الصوتية أو إلى دراسة الآلات الموسيقية، بل ويشبه فلسفة الطبيعة التي تجهل كل شيء عن الفيزياء.

ومن جهتها، تحتاج اللسانيات إلى الطموح، والاهتمام الذي حظيت به في الماضي قد عرف فتورا موازاة مع تشتتها وتفرقها إلى مجموعات تمثل عدة نماذج جزئية. ومن مصلحتها مواجهة التحديات المتعددة التي يرفعها الأدب- على مستوى التحليل الخاص به، ومن دون الادعاء بالتموقع كبديل للحقول الأدبية؛ مثلا، من المهام المنوطة بالوصف التمييز بين مادام بوفاري وبوفارو بيكوشي،

وهي مهام عادية وأساسية في الدراسات الأدبية، لكنها لا تحظى بالتقدير في اللسانيات. وسأعطي أمثلة لبعض التحديات.

1.5.إعادة الاعتبار للفيلولوجيا

بما أنّ الكلمة والجملة الفاقدة للسياق أدوات مصطنعة، فإنّ على الفيلولوجيا أن ترفع التحدي، لأن النصوص الشفهية والمكتوبة تمثل الموضوع الأمبريقي للّسانيات، وتمثل أيضا موضوع معرفتها. فالفيلولوجيا تذكر بأنه لا يوجد شيء بدون معنى، ولكلّ تفصيل أهميته. وفي إحدى محترفات القراءة التي نظمتُها مع صديق لي، طرأ خلاف بيننا في وجهات النظر بخصوص أحجية من أحجيات لافونتين (La Fontaine) : واتضح بعد البحث والتنقيب أن فرقا «بسيطا» في الترقيم في طبعتينا كان هو السبب في خلخلة البنية السردية. غير أنّه لا يوجد نحو صوري يتكفل بالتعليق على الترقيم ولو بكلمة واحدة، ونعلم أنّ الترقيم يمثل خُمس السلسلات الخطية في كل نصّ. وبالاستناد إلى مناهج التسجيل، توسع مجال الفيلولوجيا ليشمل الجانب الشفهي، وهذا ما سمح بإحداث طفرة في لسانيات المتن المصحوبة بتكوين حقل جديد هو الفيلولوجيا الرقمية (راستيي،2001،ف2).

2.5.إعادة النظر في السيميوزيس

لا تعتبر اللغة قائمة من العلامات الحاملة مسبقا لعدة معاني، والمعنى الموضوع مسبقا يمثل فرضية عكستها قضية التعدد المعنوي العويص، والذي ساهمت القاموسية في منحه صورة خاطئة. لا يُشفر السيميوزيس في اللغة، وإذا اقترحت اللغة بل وفرضت شروطا دائما ضرورية، فإن هذه الشروط لا تكون كافية لتحقيق السيميوزيس، باعتباره تكوينا فريدا دائم التجدد بواسطة علامات داخل السياق–مع العلم أن السياق يمتد إلى النص وإلى المتن.

إن الخصوصيات «الصورية» في الشعر وعلى الخصوص القافية، والعروض، والأبيات هي وسائل للابتكار السيميائي. ويمتد هذا ليشمل كل الأدب «المكبل بالقيود» وكل الخصوصيات مرهونة بالقيود، لأن الإبداع الأدبي يتحقق بحسب القيود الأخلاقية والجمالية المفروضة على المبدع. إن الميزة الكبرى عند الكاتب

ليست هي الخيال، أي البديل الرومانسي للإلهام العتيق، ولكن ميزته مرتبطة بالمشروع الأخلاقي والجمالي، وبالقدرة على الاستفادة من أدنى الحوادث التي تتعرض لها المادة اللغوية، لاستنتاج أشكال دائمة التجديد ودائما غير متوقعة.

وتحتوي التجربة السيميائية المتعلقة بالأدب على تعليمات كبرى. وعلى شاكلة الرسامين الذي يحتفظون بميزة التقدم على النظريات الرائجة في علم البصريات، فإن الكتاب يتجاوزون في الغالب اللسانيين، الذين يعتبرون أن السمات التقنية المكوِنة للعمل الفني تكون أو يتعين عليها أن تصبح موادا قابلة للملاحظة والكشف؛ثم إن أخذها بعين الاعتبار سيسمح لا محالة بتعميق التفكير في مسألة السيميوزيس، والمساهمة في إعادة تأسيس اللسانيات. في الحقيقة، كانت السيميائيات في الماضي وخصوصا في المشروع السوسيري امتدادا للسانيات؛ ولكن ومع استمرار هذا التوسع، يجب في الوقت الحاضر تدبير إعادة تصور سيميائي للسانيات التي لا يمكنها الاكتفاء بالعلامة السوسيرية المطروحة في كتاب **دروس في اللّسانيات العامّة**، وبالتالي يتعيّن عليها الاعتراف بالتباين السيميائي الذي تعرفه اللّغات والنصوص (راستيي،2015). وبالنسبة إلى هذا التصور الجديد، نرى أن دراسة فنون اللّغة تحظى بأهمية جلية.

3.5.الأخذ بعين الاعتبار التفاعل القائم بين اللغات

يستطيع الأدب التوسع في مفهوم اللغة وجعله –نسبيا. وكان القوميون في الماضي يعملون ما في وسعهم من أجل دفن اللغات داخل الحدود، وجعلها أداة للتعبير عن «نظرة العالم» الخاصة بشعب معين، حتى لو اضطرت إلى معيرتها والوصول إلى حد اختراع أصل وهمي.

غير أن اللغات لا تعتبر قطعا حالات معزولة، وحينما ننظر إلى اللسانيات الخاصة بمواقع النشر، فإن الظواهر المرتبطة بالنشر تهم كل جوانب المستوى التحليلي، لأن كل عمل فني يجد نفسه مهووسا بالأعمال الأخرى، كما أنه دائم النظر في الأصول أو الترجمات– التي تعتبر هي الأخرى عملا فنيا مساهما في تجديد اللغة. ونرى اليوم أن صلاحية كونية الأنحاء الصورية قد انتهت بسبب الكوسموبولوتية العقلانية التي تتحكم في توطيد علوم الثقافة. ومثال الأدب يدفعنا إلى التأكيد على مبدإ المقارنة الذي منح للسانيات قاعدتَها التجريبية،

وسمح لها بالتحرر بصورة غير نهائية، مع الأسف، من الأحكام المسبقة النابعة من فلسفة اللغة.

4.5.التأويل بوصفه إشكالية

إذا ما تم وضع السيميوزيس، فإن التأويل سيكون اعترافا بالأشكال. وبما أن التكرار أمر مستحيل، فإن كل استعمال للكلمة عبارة عن حالة شاذة، لأن كل سياق، مهما كان متوقعا، يعد أمرا حديثا. ويحكم التأويل إذن على كل علامة بأنها طرية من حيث الاستعمال، من دون أن تكون لها القدرة على الثبات. وبناء عليه، يجد التأويل نفسه وسط سيرورة عمادها السيميوزيس الذي لا حدود له.

وفي سنة (1956)، افترض شومسكي أن التأويل نسخ لعملية التوليد، وعلى هذا الأساس قام بحذفه، متبوعا في ذلك بأجيال عديدة من اللسانيين؛ غير أن كل النصوص، والأعمال الأدبية في المقام الأول، تطرح مشاكل كبيرة تهم التأويل، ولا يمكن حل هذه المشاكل بواسطة التأليف المنطقي-النحوي. فلسانيات المتن، وظهور الويب المتعدد اللغات، كل هذا يقود إلى التوسع في المجال الذي يسميه شليرماخير(Schleirmacher) **الهيرمينوطيقا المادية**[11]، وهي هيرمينوطيقا غير حَرفية، ولكنها تأخذ بعين الاعتبار الحرف بهدف التدقيق وتحقيق النجاعة.

وحاليا، يجب تعويض ثنائية النحو وفلسفة اللغة بثنائية اللسانيات العامة والمقارنة وفلسفة الأشكال الرمزية. ويمكن للمشروع التكميلي للسيميولوجيا العامة عند سوسير ومشروع فلسفة الأشكال الرمزية عند كاسيرر أن يتحدا بعد قرن من تطور الأبحاث في البنيوية والمورفولوجيا في إطار سيميائيات الثقافات، باعتبارها نظرية وصفية تهدف إلى دراسة المؤسسات الرمزية (اللغة، والفن،

(11) . الهيرمينوطيقا هي نظرية تأويل النصوص، ونتجت تاريخيا عن مهمة تأويل النصوص القديمة، وكانت بذلك تضع معنى النصوص، من حيث ارتباطها بالسياق التاريخي الذي أنتجت فيه. أما الهيرمينوطيقا الفلسفية، المستقلة عن اللسانيات، فإنها تهدف إلى تحديد الشروط المتعالية لكل تأويل. ويسعى راستيي للتمركز خارج الهيرمينوطيقا الفلسفية المنبثقة من الهيرمينوطيقا الدينية التي ترى أن المعنى يوجد في النص، ويحاول تأسيس هيرمينوطيقا مادية مبنية على العقلانية التجريبية. وتجدر الإشارة إلى أن بتير زوندي قد اقترح مشروع الهيرمينوطيقا المادية في السنوات الماضية، وتشير هذه العبارة، المقتبسة أصلا من أبحاث شليرماخير، إلى شكل كامل وطموح من الهيرمينوطيقا النقدية المطبوعة بالتقليد الفيلولوجي (المترجم).

والقانون، والتقنيات، والعلم، الخ) . فقائمة هذه المؤسسات مفتوحة والربط بينها يختلف بحسب الثقافات.

يمَكن الأدب من اكتشاف اللغات وسبر أغوار سلطتها؛ إذ إن الاختلافات من حيث النبر، والمستوى اللغوي، والتعابير المحكمة الصياغة، والمعجم، تفتح كلها عالما من التأثيرات الدلالية غير المعروفة في الاستعمالات الأخرى، سواء كانت عادية أم لا؛ ثم إن السير العادي للغة ما يتوقف دون التخلي عن عملية تنشيط الفضول بل الرغبة في التعلم.

وبغض النظر عن الانفتاح على هذا التنوع الداخلي في اللغة، فإن دراسة الأدب تسمح بملاحظة التنوع الحاصل في اللغات، لأن الأعمال تتحاور فيما بينها دون انقطاع، في إطار التناص المتعدد اللغات في الأدب العالمي؛أما قراءة هذه الأعمال ، فإنها تجعل من القراء، على نحو خفي، مواطنين عالميين، وهذا أمر هام بالنسبة للجماهير المنقسمة بسبب التيارات الهوياتية.

وهنا نلحظ رهانا تحريريا، بل ورهانا ديمقراطيا. إن الحرية التي يتمتع بها الفنان تمكن العمل الفني من خلق الحدث والاستمرار في القطع مع بؤس الحياة اليومية، وقد يصبح العمل الفني مثالا يرمي إلى الانعتاق من الأحكام المسبقة التي تبث الضباب على العقول. ومثل العلوم الأخرى والفنون الأخرى، يتقاسم الأدب واللسانيات، كل من موقعه، البعد النقدي الرامي إلى مواجهة الصور النمطية والأحكام المسبقة؛ وفي حال ما إذا توفرت الشروط الجديدة، سنجدد إذن مشروع فلسفة الأنوار، الممتد من الفكر الموسوعي إلى علوم الثقافة الحالية: وسنذهب إلى أبعد من إحداث مصالحة بين ثقافتين أكاديميتين، الثقافة العلمية والثقافة الأدبية، اللتين كانتا في القديم منفصلتين بشكل مفرط، يتعين على الثقافة العالمية أن تتصالح مع نفسها، مع التغاضي عن الإيديولوجيات الهوياتية والانكماش على القومية.

ملاحظة : تستند هذه الأفكار إلى مجموعة من المؤلفات الخاصة بالتحليل الأدبي (انظر الكاتب، 2005، 2019 ،2018 ،a2016)، ومن المستحيل الإشارة إليها نظرا لضيق المساحة المخصّصة لهذا المقال.

المراجع

ـ المراجع الأعجميّة :

- Chomsky, N. (1966) , La linguistique cartésienne, Seuil, Paris.
- Chomsky, N. (1984), La connaissance du langage, Communications, (Vol 40, pp. 7-34).
- Glissant, É. (1975), Malemort, Gallimard, Paris.
- Havet, L. (1922), Célébration du cinquantenaire de l'Ecole pratique des hautes études, Champion, Paris.
- La Grasserie, R. (1893), De la classification objective et subjective des arts, des sciences et des lettres, Alcan, Paris.
- Rastier, F. (1987), Sémantique interprétative, PUF, Paris.
- Rastier, F. (2001), Formes sémiotiques, Presses universitaires, France.
- Rastier, F. (2005), Ulysse à Auschwitz Primo Levi, le survivant, Cerf, Paris.
- Rastier, F.(2015), Saussure au futur, Les Belles-Lettres/Encre marine, Paris.
- Rastier,F.(2016a),Créer.image,langage,virtuel,Paris-Madrid, Casimiro.
- Rastier, F. (2016b), Rastier, Sens et textualité, Limoges, Lambert Lucas (deuxième édition augmentée).
- Rastier, F. (2018), Mondes à l'envers, De Chamfort à Samuel Beckett, Garnier, Paris.
- Rastier, F.(2019), Témoignages inconcevables, Littératures et exterminations, PUF (sous presse), Paris .